



methqalm@yahoo.com

- السيكولوجية الفطرية لعمل غرائز التدين والأخلاق
- هل يوجد دين بالطفولة؟!
- لماذا التشريعات تعتبر الطفل قاصر؟!

المقال الخامس والعشرون

د. موسى الزعبي - الطب النفسي - سوريا/ السعودية

بالقرون الثلاثة الأخيرة من عمر البشرية ومع بداية ما يسمى عصر التنوير بأوروبا بالخروج عن الدين والأخلاق الفطرية ومحاولة عقلنتهم وعلمنتهم وذلك بالفصل بين الأخلاق والدين واتباعهم للعلم والعقل المجرد وأنهما ليس شيئاً واحداً أو من منبع واحد بعدما ساد الاعتقاد طوال التاريخ أنهما شيئاً واحداً لا انفصام بينهم وأن مصدرهم المقدس هو الله الذي يشرع الدين والدين يشرع الأخلاق!!....

واجه العلماء سؤالين نتيجة ذلك الخروج والتمرد وهما أولاً ما هي ماهية غرائز التدين والأخلاق وأصلهم وثانياً ما هو إلزامية الفعل الخلقي والديني وذهب الفلاسفة وعلماء النفس بذلك مذاهب شتى فبعضهم بقي على المذهب القديم بأن مصدر الأخلاق هو الدين والدين مصدره الله وبعضهم قال بأن مصدرهم المجتمع والوالدين وبعضهم قال مصدرها العقل المجرد والعلم واختلف هؤلاء بماهية الأخلاق والفعل الخلقي والديني وقوة إلزامهم فبعضهم قال كل ما يجلب السعادة واللذة والنفع فهو أخلاقي وبعضهم قال أن العقل من يقرر ذلك بغض النظر عن مردود الفعل الخلقي بما يسمى أخلاق الواجب وهي محاولة يائسة لعلمنة الأخلاق...

كما أن مدارس علم النفس اختلفت حول مصدر وآلية التدين وكيف يصبح الطفل متدين فبعضها قال بحيادية علم النفس تجاه الدين كونه من الأمور الميتافيزيقية أو الفانتازيا التي تتبع لما وراء الواقع والوجود وليست بمتناول العلم والعقل كونها غير محسوسة وغير مدركة بشكل تجريبي ومادي وإنما موجودة فقط كشعور وجداني عاطفي لا يمكن تطبيق أي قياسات نفسية عليه ! بينما فسرت المدارس النفسية الأخرى التدين بالتقليد الاجتماعي والأسري وأن مصدر الدين المحيط فهو من ينشئ طفل متدين وآخر غير متدين حيث يبدأ التدين عند الطفل بعمر الرابعة أو الخامسة بما يسمى تكوين الضمير وينمو بالتقليد حيث يقوم الوالدان مكان الله في الطفولة ثم مع العمر يتبلور مفهوم الله حسب ثقافته ومجتمعه وبيئته فالتعلم الاجتماعي والتقليد هم المحور الأساسي بنشوء التدين أو عدمه وليس الأمر متعلق بنفس الإنسان وقابليتها وعدم قابليتها للتدين؟!

بالقرون الثلاثة الأخيرة من عمر البشرية ومع بداية ما يسمى عصر التنوير بأوروبا بالخروج عن الدين والأخلاق الفطرية ومحاولة عقلنتهم وعلمنتهم وذلك بالفصل بين الأخلاق والدين واتباعهم للعلم والعقل المجرد وأنهما ليس شيئاً واحداً أو من منبع واحد

ساد الاعتقاد طوال التاريخ أنهما شيئاً واحداً لا انفصام بينهم وأن مصدرهم المقدس هو الله الذي يشرع الدين والدين يشرع الأخلاق!!....

واجه العلماء سؤالين نتيجة ذلك الخروج والتمرد وهما أولاً ما هي ماهية غرائز التدين والأخلاق وأصلهم وثانياً ما هو إلزامية الفعل الخلقي والديني

بعضهم بقي على المذهب القديم بأن مصدر الأخلاق هو الدين والدين مصدره الله وبعضهم قال بأن مصدرهم المجتمع والوالدين وبعضهم قال مصدرها العقل المجرد والعلم

اختلف هؤلاء بماهية الأخلاق والفعل الخلقي والديني وقوة إلزامهم فبعضهم قال كل ما

يجلبه السعادة واللذة والذمق فهو أظفوي وبعضهم قال أن العقل من يقرر ذلك وبغض النظر عن مردود العقل الخلفي بما يسمى أطلاق الواجب

أن مدارس علم النفس اختلفت حول مصدر وآلية التدوين وكيف يصبح الطفل متدين

بعضها قال بحداية علم النفس تجاه الدين كونه من الأمور الميتافيزيقية أو الفانتازيا التي تتبع لما وراء الواقع والوجود وليس بمتناول العلم

بينما فسرت المدارس النفسية الأخرى التدوين بالتقليد الاجتماعي والأسري وأن مصدر الدين المحيط فهو من ينشئ طفل متدين وآخر غير متدين حيث يبدأ التدوين عند الطفل بعمر الرابعة أو الخامسة بما يسمى تكوين الضمير

مع العمر يتبلور مفهوم الله حسب ثقافته ومجتمعه وبيئته فالتعلم الاجتماعي والتقليد هم المحور الأساسي بنشوء التدوين أو عدمه وليس الأمر متعلق بنفس الإنسان وقابليتها وعدم قابليتها للتدين!؟

إن طروحات تلك النظريات فيها كثير من السطحية والسذاجة العلمية

كلها برامج يولد مجهر بما الطفل ولكن كل منها يعمل وفق عمر معين من حياة الطفل والإنسان والبشرية معرفت من خلال التجربة والتراكم العلمي خصائص كل مرحلة وأي خلل باي مرحلة مؤشر على خلل صحي يجب تتداركه وعلاجه

غرائز الجهاز النفسي المكون من الغرائز الترابية والغرائز

والحقيقة العلمية والواقعية والفطرية فإن طروحات تلك النظريات فيها كثير من السطحية والسذاجة العلمية فالطفل يولد وهو يملك القدرة على أكل مختلف الأطعمة ومزود بحساسات تجاه الأطعمة الفاسدة والصالحة ولكن بالأشهر الأولى لا يستطيع أن يشرب أو يأكل غير الحليب ومن نوع خاص ثم بعد أشهر يأكل النشويات وبعدها الخضار واللحوم وسبب ذلك عدم نضوج الأنزيمات القادرة على هضم مختلف تلك الأطعمة ولو أكل كل شيء بعمر مبكر لما تعرف جسمه عليها ولا استفاد منها وسببت له مشاكل مختلفة وكذلك حاسة البصر فهو يولد ولديه القدرة على الإبصار ولكنه لا يبصر ويرى الأشياء إلا بعد أسابيع بعد التنبية والتفاعل بين الضوء الخارجي المنعكس والخلايا البصرية ولو تم طمس عيونهم وحجبهم عن النور بحياته المبكرة لما أبصر وكذلك اللغة فهو يولد وهو مزود بجهاز لغوي ومعجمي للغة ولكن التحريض والتفاعل يحرض اللغة فيبدأ يولد عدد لا متناهي من الجمل والعبارات من عدد محدد من المفردات وكذلك قابلية المشي والضحك والبكاء فكلها برامج يولد مجهز بها الطفل ولكن كل منها يعمل وفق عمر معين من حياة الطفل والإنسان والبشرية عرفت من خلال التجربة والتراكم العلمي خصائص كل مرحلة وأي خلل باي مرحلة مؤشر على خلل صحي يجب تتداركه وعلاجه

وبالعودة لمفهوم التدوين وعلاقته بذلك فتطور العقل والنفس البشرية يمر بنفس المراحل خلال مرحلة الطفولة عند جميع البشر وعبر الماضي وعند جميع الحضارات فهي سمة بشرية تميز الإنسان عن غيره من الكائنات وليس الأمر تراكم معرفي عبر التاريخ كما تزعم الفلسفة والنظريات الحديثة بتطور الإنسان من مخلوقات دونية فغرائز الجهاز النفسي المكون من الغرائز الترابية والغرائز العقلية والغرائز الفطرية الدينية والخلقية يمر بعدة مراحل حتى يصل لمرحلة النضج والمحاكمة والاستدلال النظري والخلقي والديني

ففي مراحل الطفولة المبكرة يكون الاستدلال المادي فقط فعالاً بينما الاستدلال العقلي المجرى والفطري الخلفي والديني يكون لا يزال غير مفعلاً فيستطيع الطفل خلال الطفولة المبكرة حتى عمر السادسة أو الثامنة الاستدلال وربط الأمور مادياً بسبب طبيعة نمو الغرائز واعتمادها على الإدراك الحسي الملموس والوارد من حواسه الخمسة بإدراك الأشياء ولكن مع ذلك تتجه هذه الغرائز نحو شيء واحد يملك صفات الجلال والكمال وبهذا العمر يعتبر الطفل الوالدان أو من يقوم مكانهما هم الشيء الأوحد بالكون وحتى لو ذكرت له الله يحاول قياسهم مادياً بالمقارنة مع الصورة المادية أمامه للوالدين فيسأل عن شكل الله ولونه ولباسه وهكذا... ومع عمر السابعة وما بعدها يبدأ الاستدلال النظري العقلي المجرى للطفل بالعمل حيث تنمو الغرائز المسؤولة عن ذلك بهذا العمر وليس الأمر تقليداً أو اقتباساً فيبدأ الطفل يطلق على الله صفات التجرد والكمال والجلال ولكن دون أن يدرك جميع تلك الصفات ودون أن يدرك حقيقة ثنائية الحياة والموت وماهية بعد الموت لأن غرائز التدوين لا تكون عاملة بهذا العمر حيث تكون هذه المرحلة جسراً بين الاستدلال المادي السابق إلى الاستدلال الفطري اللاحق مروراً بالاستدلال المجرى بهذا العمر وتأتي أهمية هذه المرحلة وخطورتها بنفس الوقت بأهمية إعداد الطفل للمرحلة اللاحقة حتى لا يتيه ويضيع بالأسئلة الوجودية التي تتعرج فجأة وتكون وظيفة الأسرة والبرامج التربوية هو تعبيد الطريق للمرحلة المقبلة بترويض الغرائز العقلية وإشباعها سلوكياً بالتوجه نحو مصدر واحد يملك

العقلية والغرايز الفطرية الدينية
والخلقية يمر بعدة مراحل حتى
يصل لمرحلة النضج والمعالجة
والاستدلال النظري والخلقي
والديني

في مراحل الطفولة المبكرة
يكون الاستدلال المادي فقط
فعالاً بينما الاستدلال العقلي
المجرد والفطري الخلقي
والديني يكون لا يزال غير
مفعلاً

مع عمر السابعة وما بعدها يبدأ
الاستدلال النظري العقلي
المجرد للطفل بالعمل حيث تنمو
الغرائز المسؤولة عن ذلك بهذا
العمر وليس الأمر تقليدياً أو
اقتباساً

وظيفة الأسرة والبرامج التربوية
هو تعبيد الطريق للمرحلة المقبلة
بترويض الغرائز العقلية
وإشباعها سلوكياً بالتوجه نحو
مصدر واحد يملك جميع صفات
الكمال والجلال والجمال وأن هذا
الشيء هو مصدر الوجود
والحياة وواجب الوجود

تأتي أهمية التدريب على الصلاة
لا كونها شعيرة دينية أو لأثرها
بالخشوع بهذا العمر وإنما
لدورها بكوثر الغرائز باتجاه
سكتها الصحيحة بالالتقاء حول
أصل واحد يجمع كل الصفات
حالما تتفق مستقبلاً وسيذكر
لاحقاً أنه هو الله ﷻ

الغرائز العقلية وخاصة غرائز
الغائية والسببية لا تهدأ ولا
تتوقف عن الإثارة حتى تستقر
على موجد واحد ومالك واحد
بيده الوجود كله

فطبيعة العقل البشري يتوجه نحو
التوحيد بطبيعته الفطرية بعزو
كل شيء إلى أصل وموجد واحد
ولا تجتمع هذه بغير الله..

جميع صفات الكمال والجلال والجمال وأن هذا الشيء هو مصدر الوجود والحياة وواجب الوجود
ويكون ذلك بالنقاش الحر المفتوح دون اللجوء للضرب والخوف لأن هذا قد يثبط ويعيق تفنق
بعض الغرائز بالأسئلة التي تدور بفكر الطفل فتبقى حبيسة نفسه تسبب له خللاً بمنظومته خللاً
بمنظومته إذا لم يتم إشباعها جيداً حيث أن كل طفل يمر بظروف معينة ويسمع ويرى أشياء تثير
عنده شكوكاً مختلفة ووظيفة الأسرة مراقبة ذلك وتعديله وهنا تأتي أهمية التدريب على الصلاة لا
لكونها شعيرة دينية أو لأثرها بالخشوع بهذا العمر وإنما لدورها بكوثر الغرائز باتجاه سكتها
الصحيحة بالالتقاء حول أصل واحد يجمع كل الصفات حالما تتفق مستقبلاً وسيذكر لاحقاً أنه
هو الله جل جلاله لأن الغرائز العقلية وخاصة غرائز الغائية والسببية لا تهدأ ولا تتوقف عن
الإثارة حتى تستقر على موجد واحد ومالك واحد بيده الوجود كله فطبيعة العقل البشري يتوجه نحو
التوحيد بطبيعته الفطرية بعزو كل شيء إلى أصل وموجد واحد ولا تجتمع هذه بغير الله..

ومع عمر العاشرة وما بعدها تبدأ الغرائز الفطرية بالعمل فيبدأ الطفل يدرك حقيقة الوجود
ويبدأ بالأسئلة الذاتية من أوجده ولماذا أوجده وما مصيره وما وظيفته بهذه الحياة وما هي مهمته
الوجودية تجاه موجهه وخالقه ويبدأ بإدراك حقيقة ضعفه بشكل تدريجي حيث لم يملك قرار
وجوده ولن يملك قرار موته وصحته وقرار حاضره وغده

وأن هناك عالم غير عالم الشهادة وهناك خالق لكل شيء بيده كل شيء فحياته وموته
وصحته بيده وهنا تأتي أهمية تهيئة الطفل لهذه المرحلة من خلال تعبيد المرحلة الماضية نظرياً
وسلوكياً فالغرائز الفطرية تتفق بهذه المرحلة فجأة بما يشبه انهيار سد ماء ضخ بأسئلة جمة
ويجب أن يتم تصريف هذه الغرائز ضمن أفتينها الصحيحة حتى يتم كوثر العقل والنفس بشكل
صحيح من خلال انتماء الإنسان لشيء وأصل واحد أو ما يسمى بالتوحيد لأنه مهما أفتنوا
الطفل بأنه لا يوجد غير عالم الشهادة وبالانتماء للمجتمع وقوانينه المادية فإن غرائزه الفطرية
تخبره أن هناك شيء ما خلف هذا الوجود والأصنام المادية وأن هناك حياة ما بعد هذه الحياة
الدنيا وأنه هناك واحد بيده كل شيء فتبقى نفسه مثارة بالشك وغير مستقرة حتى تستقر عند ذلك
الواحد الأحد فتسبحه وتحمده وتشكره كي يطفئ قلقه الفطري بذلك حتى لو أنه عندما يتعرض
لضغوطات حياتية قاهرة كمرض وزلزال وكوارث فيظهر عجزه الحقيقي فيلجأ لتلك الذات الواحدة
بالنجدة والانتماء وهو يكون بأحواله الطبيعية يلجأ لآليات تفتيق معرفية بقوله أنه يلجأ للأرواح
بتلك الأشياء التي خلف الوجود والتي ماهيتها مجهولة لتسكت قلقه الفطري بشكل عابر مؤقتاً..

وختاماً فإن مراحل تفنق غرائز التدين تعتبر مراحل فطرية طبيعية يمر بها كل طفل وليست
خاضعة للتعليم أو التراكم البشري بل هي سمة بشرية بكل إنسان وليس تقليد أو تعليم أو صراعات
داخلية كما تزعم بعض نظريات علم النفس حتى لو ترك الطفل بغابة دون تعليم فإن غرائزه
توجهه نحو البحث عن الأصل الواحد لكل شيء وهنا تأتي أهمية شعائر الدين بتسهيل الطريق
على الإنسان بالاستدلال على ذلك الأصل الواحد وبالمقابل خطورة انحرافه فكرياً تجاه معتقدات
خاطئة فكل طفل يولد على التوحيد أو البحث عن واجب الوجود بهذا الكون..

وتأتي أهمية الأسرة والمدرسة والتربية وذلك بوضع البرامج المناسبة لكل مرحلة حتى يتم

تجهيز الطفل بشكل صحيح للمرحلة التي تليها ولا يدخل بخلل فطري وعقلي ويجب إشباع كل مرحلة بما يناسبها كما لا يجوز تقديم برامج مرحلة على مرحلة لأنه يسبب خلا نفسيا أيضا

فيتم تركيز المرحلة الأولى للطفولة على ربط التعليم بكل شيء مادي مدرك بالحواس مع تنمية المعجم اللغوي بالحفظ سواء بحفظ الآيات أو الشعر أو غيره

والمرحلة الثانية تبدأ مرحلة تنمية المهارات المعرفية ماديا أو بشكل مجرد بإشباع غرائز النفس بالغائية والسببية حول الأصل الواحد لكل الوجود حتى لا تنتشت وتتبعثر نفسه حول موجودات متعددة وهمية كي تنمو النفس بشكل متين وقوي

بينما المرحلة الثالثة تبدأ بمرحلة الاستدلال الفطري والخلقي وذلك بوضع برامج تركز على ذلك وتثير وتقلع عنده غرائز التدين والأخلاق بشكل عملي ومنطقي وتصبح مهينة لمواجهة أسئلة الحياة ومشاكلها

وتتزامن تلك المراحل مع التحصيل العلمي المعروف حسب ما وصلت له الدراسات العلمية من برامج فعالة تتناسب كل عمر ولا تعارض بين الأمرين ولا يغني أحدهم عن الآخر

وبذلك يتم كوثة أبنية الجهاز النفسي بشكل سليم فيدخل الطفل مرحلة البلوغ وهو محصن نفسيا بإطار مرجعي نفسي فطري ضد أزمات الحياة ومبدأ الواقع الذي يجعل المجتمع وتقلباته المرضية مقياساً ومعياراً لكل شيء الذي جعل الشخص البالغ ريشة بمهب الريح زاد يأسه وانتحاره بصراعه بين غرائزه الفطرية وبين مجتمع منقلب الفكر والثقافة والأهداف فأصبح تائها بهذا الوسط فنعت بالمراهق ولو تم تهيئته بشكل فطري سليم بالمراحل السابقة لما راهق ولدخل سن النضج محصنا نفسيا وذاك يعتبر مؤشرا على اكتمال عقله بالاستدلال العقلاني والفطري الخلفي ويكون قادرا على تقليد مهام الحياة المتنوعة بكل براعة ينقصه فقط الخبرة والعلم التجريبي التي تأتي مع الزمن

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Documents/Doc.Zoobi.Instinct&LangPsy15.pdf>

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقبيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2022 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الحادي عشر)

الشبكة تدخل عامها 22 من التأسيس و 19 على الوجود

22 عاما من الضجيج... 19 عاما من المنجزات

(التأسيس: 2000/01/01 - على الوجود: 2003/06/13)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

مع عمر العاشرة وما بعدها تبدأ الغرائز الفطرية بالعمل فيبدأ الطفل يدرك حقيقة الوجود ويبدأ بالأسئلة الذاتية من أوجده ولماذا أوجده وما مصيره وما وظيفته بهذه الحياة وما هي مهمته الوجودية تجاه موجوده وخالقه

أن هناك عالم غير عالم الشهادة وهناك خالق لكل شيء بيده كل شيء فحياته وموته وصحته بيده وهنا تأتي أهمية تهيئة الطفل لهذه المرحلة من خلال تعبيد المرحلة الماضية نظريا وسلوكيا

إن مراحل تفتق غرائز التدين تعتبر مراحل فطرية طبيعية يمر بها كل طفل وليست خاضعة للتعليم أو التراكم البشري بل هي سمة بشرية بكل إنسان

حتى لو تركت الطفل بغاية دون تعليم فإن غرائزه توجهه نحو البحث عن الأصل الواحد لكل شيء وهنا تأتي أهمية شعائر الدين بتسهيل الطريق على الإنسان بالاستدلال على ذلك الأصل الواحد